## المحاضرة الخامسة: الأدب والتاريخ

**تمهيد:**

تربط نظرية الأدب وبعض المباحث المعرفيّة صلات قويّة، ويرجع ذلك إلى اشتراكهما في بعض مواد الدراسة وتداخل بعض اهتماماتهم، من هذه المباحث نجد النقد الأدبي وتاريخ الأدب، حيث تربط بين المباحث الثلاثة علاقة قويّة؛ فلا لا يمكن أن يستغني أيّ مبحث عن المبحثين الآخرين، "ومن الواضح أنّ من المستحيل وضع نظرية للأدب إلاّ على أساس دراسة أعمال أدبية معيّنة، فالمعايير والمقولات والخطط، لا يمكن التوصل إليها في الفراغ، وعكس ذلك صحيح، فمن غير الممكن أن نكتب التاريخ أو النقد بدون مجموعة من التساؤلات، ونظام من المفهومات، وبعض الإشارة إلى المراجع، وبدون بعض التعميمات أيضاً"[1].

### 1. نظرية الأدب والتاريخ:

يحتاج كلّ باحث في مبحث من هذه المباحث إلى معارف متنوعة تنتمي إلى مبحث غير المبحث الذي هو ينتمي إليه، فمثلا "يجب أن يكون مؤرخ الأدب ناقداً ولو لكي يكون مؤرخاً فقط"[2]، فأثناء دراسته التأريخية يكون ملزما بالنقد والتمحيص والغربلة للمادة المدروسة كما أنّ "الناقد الذي يقنع بجهله في حقل العلاقات التاريخية سرعان ما يضل في أحكامه الأدبية، فليس باستطاعته أن يعرف أيّ الأعمال أصيل وأيّها منقول"[3].

هذا التداخل الحاصل بين المباحث الثلاثة لا يمنع استقلالية كلّ مبحث عن غيره؛ حيث "لكلّ منهم طريقته الخاصة في التعامل مع الأعمال الأدبية يحددها الهدف المتميّز لكلّ منهم. فالمؤرخ الأدبي يتعامل مع النص ليبيّن الملابسات التي أحاطت به وبصاحبه، والناقد يتعامل مع النصّ ليبيّن مواطن الجودة والرداءة... أمّا المنظر الأدبي فإنّه يهتم بجملة من النصوص... لكي يستنبط مبادئ عامة شاملة تبيّن حقيقة الأدب وأثره"[4].

---

[1]. رينيه ويليك، أوستن وارين، نظرية الأدب، تر: محي الدين صبحي، ط02، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص41.

[2]. المرجع نفسه، ص45.

[3]. المرجع نفسه، ص46.

[4]. شكري عزيز الماضي، في نظرية الأدب، ط01، دار المنتخب العربي، بيروت، لبنان، 1993، ص14.

يوضّح الجدول أدناه، الخصائص أو الفروقات الواقعة بين المباحث الثلاثة:

| نظرية الأدب | النقد الأدبي | تاريخ الأدب |
|---|---|---|
| تبحث في العناصر العامة والمشتركة. | يبحث في المميّز في نص أدبي ما | يبحث في النص الأدبي باعتباره وثيقة تاريخية. |
| تأصيل القواعد العامة التي تميّز الأدب والأجناس الأدبية المختلفة. | البحث عن مواطن التفرّد في النصوص الأدبية. | يضع النص في سياقه التاريخي. |
| تدرس مجموعة من النصوص والخطابات التي تجمعها عناصر مشتركة | تقييم وتقويم النصوص الأدبية. | |
| | يقوم على الدراسة السكونية | |

## 2. المنهج التاريخي في الأدب:

يعدّ المنهج التاريخي في الأدب من أولى المناهج النقدية التي ظهرت في فترة الانتقال الحاسمة من العصر الكلاسيكي القديم إلى العصر الحديث، حيث دعا أصحابه إلى ضرورة "التنظيم العلمي للمادّة الأدبيّة ودراستها بتحديد مصادرها، وتوثيق نصوصها، وتحليل مخطوطاتها، والكشف عن علاقاتها وعوامل التأثير والتأثّر فيما بينها"[1]، وبالتالي دراسة الأدب انطلاقا من الاهتمام بالتوثيق ونسبة النصوص إلى أصحابها، ثمّ تحليل وشرح تلك النصوص من خلال ربطها بالبيئة التي ظهرت فيها، وكشف علاقات التأثير والتأثّر بغيرها من النصوص الأدبيّة.

[1]. صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر ومصطلحاته، ط1، دار ميريت للنشر، القاهرة، مصر، 2002، ص28.

يعرّف (يوسف وغليسي) المنهج التاريخي بقوله: "هو منهج يتّخذ من حوادث التاريخ السياسي والاجتماعي وسيلة لتفسير الأدب وتعليل ظواهره أو التاريخ الأدبي لأمّة ما، ومجموع الآراء التي قيلت في أديب ما أو في فنّ من الفنون.. وهو يفيد في تفسير تشكّل خصائص اتّجاه أدبي ما، ويعين على فهم البواعث والمؤثّرات في نشأة الظواهر والتيارات الأدبية المرتبطة بالمجتمع انطلاقا من قاعدة الإنسان ابن بيئته"[1]، ويرى فيه من أكثر المناهج اعتمادا في ميدان البحث الأدبي، وإن كانت تطبعه نقائص تحول دون اكتمال نتائجه.

يحدّد ( جوستاف لانسون Gustave Lanson 1857/ 1934م) الفرق بين المؤرّخ والناقد التاريخي بقوله: "المؤرّخ عندما يتناول وثيقة، يحاول أن يقدُر العناصر الشخصية فيها لينحّيها، ولكن هذه العناصر الشخصية هي التي تحمل القوّة العاطفيّة والفنيّة في المؤلف الأدبي، وإذن فمن الواجب أن نحتفظ بها"[2]، لذا فأساس المنهج التاريخي في الأدب من وجهة نظر (لانسون)، هو دراسة النِّتاج الأدبي دراسة تاريخية دون إهمال خصائصه الفنية الجمالية.

تتلخّص مراحل النقد التاريخي للأدب عند (لانسون) فيما يأتي:

- مقارنة الأعمال الأدبية بعضها ببعض لمعرفة النص الأصلي من المنتحل.
- معرفة تاريخ النص في أجزائه وكيفيّة تكوّنه.
- معرفة التغيّرات والتطوّرات الطارئة على النصّ.
- إقامة المعنى الحرفي للنص من خلال ألفاظه وتراكيبه بالاستعانة بعلم اللغة والنحو.
- إقامة المعنى الأدبي للنص من خلال أفكاره وعواطفه وانفعالات صاحبه، وهنا، تنبغي الاستعانة بالذوق الفني.
- تحديد ملابسات وخلفيات تشكّل النص مع دراسة مصادره.
- تحديد مدى نجاح المؤلّف ومدى تأثيره في المجتمع.

[1]. يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، ط1، دار جسور، الجزائر، 2007، ص15.

[2]. لانسون/ مايبه، منهج البحث في الأدب واللغة، تر: محمد مندور، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، 2015، ص22.

من جانب آخر، يحدّد (محمد مندور) الفرق بين النقد الأدبي وتاريخ الأدب، مؤكّدا أنّ الأوّل سابق عن الثاني، ودليل ذلك أنّ النّقدَ معاصرٌ لخلق الآداب كما أنّ أغلب الأدباء القدماء كانوا نقّادا، أمّا التاريخ الأدبي فلا ينشأ إلّا عندما يتكوّن لأمّةٍ تراثٌ أدبيّ يستحقّ الدراسة والتأريخ.

ردفا على ما قيل، فتاريخ الأدب يختلف عن التاريخ العام، لأنّ الأوّل يبحث عن الخاص المنفرد (خصائص المدرسة الأدبية أو الأديب في حدّ ذاته)، والثاني يبحث في الكليات المشتركة (نُظم أو حركات اجتماعية، سياسية أو اقتصادية)، يقول (محمد مندور): "تاريخ الأدب جزء من التاريخ العام، وهو خاضع لمناهج التاريخ بوجه عامّ، وذلك مع بعض الفوارق التي ترجع إلى طبيعة الأدب، فالتاريخ العام يتناول حقائق انقطع بها الزمن، فلم تمتدّ إلى الحاضر وتؤثّر فيه، وعلى العكس من ذلك الأدب فهو ماضٍ مستمرّ في الحاضر، وإذا كانت مادّة التاريخ وثائق ومحفوظات تُحفظ في دور الكتب، ويُبحث عنها لقيمتها الإخباريّة، فإنّ الأدب على العكس من ذلك عبارة عن مؤلفات شعرية أو نثرية لا تزال حيّة لقدرتها المستمرّة على الإثارة الفكرية أو العاطفية"[1]، ويرى فيها (مندور) ضرورة من ضرورات الحياة عند الشعوب المتحضّرة، لأنّها تربّي ملكات الذوق والإحساس عند البشر كما تربّي العلوم الرياضية ملكات المنطق والتفكير.

[1]. محمد مندور، في الأدب والنقد، مؤسسة هنداوي للنشر والتوزيع، المملكة المتحدة، 2022، ص10.